Global Islamic Economics Magazine
مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

Volume No. 141, MARCH 2024 - SHABAAN-1445

التخطيط والتقدير الكوني

د. سامر مظهر قنطقجي

رئيس تحرير مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

@ FB , LinkIn , Youtube

تبدأ وظائف الإدارة من التخطيط بينما تبدأ القيادة من الرؤية، وترتكز مهمة التخطيط على تحقيق الهدف الذي يُجسد رؤية القيادة.

يعكف المختصون في التخطيط الإداري والاستراتيجي على وضع الخطط المُحكَمة لإنجاح أعمالهم التي يديرونها، تلك الأعمال التي تتراوح بين المتناهية الصغر والعملاقة، ومنها ما هو على مستوى الدول والأمم. وكثيراً ما يشوب تلك الخطط، الهنات والهفوات والأخطاء، لذلك يعمدون لجعلها مرنة، تحتمل عدة سيناريوهات، لتكون شاملة لتجاوز ما قد يشوبها، ولصعوبة ذلك، ورغم حجم المعلومات المتاحة والأدوات التنبؤية المتطورة المدعومة بالذكاء الصنعي والبرمجيات المتينة، فإن المخططين يحاولون جعل مدى خططهم بحدود الخمس سنوات على أبعد تقدير، بعدما تبين لهم ضعف الخطط التي مداها سبع سنوات وعشر وأكثر.

وقد أورد القرآن الكريم خطط يوسف عليه السلام السبعية في قوله تعالى: **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (يوسف : ٤٧–٤٨). وقد كانت خططًا فعّالة ومفيدة، أدت لحفظ حياة الناس، بفضل حكمة يوسف عليه السلام بعدما علّمه الله تعالى أصول التأويل: **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** (يوسف : ٦).

فكيف هو حال التخطيط لآجال لا يعلمها إلا خالقها، دون أي خلل ينتابها، يُقدَّر فيها كل شيء بلا استثناء تقديراً مُحكماً، وتشمل عبارة (كل شيء): الكون المحسوس وغير المحسوس: **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (النحل: ٨)، فالكون منه ما اطّلع البشر على بعضه ومنه ما لا يبصرونه: **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** (الحاقة: ٣٨-٣٩).

قال تعالى مُعلّماً عباده التخطيط وموجههم إليه وكيف يكون ناجحاً: **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** (الطلاق: ٢- ٣). فتضمنت الآيات الكريمة أموراً إدارية هامة، أهمها: **تحديد الرؤية**؛ حيث يجب على الإنسان أن يحدد رؤية لحياته، فإن أراد لنفسه مخرجاً من كل ضيق يخشاه أو يتجنبه، وإن أراد رزقاً من حيث لا يدري ولا يحتسب، فيجب عليه:

ا. التخطيط لشؤونه، بالتوكل على الله، لأن أمر الله حاصل ونافذ، فقد جعل الله لكل شيء قدراً أي مقداراً محسوباً لا خلل فيه، **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** (الطلاق: ٢- ٣). ويستوجب التوكل بذل العزم بالعمل، لقوله تعالى: **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** (آل عمران: ١٥٩)، لذلك يسبق العمل التوكل وإلا صار تواكلاً.

ب. وضع الخطة، وهذا واضح من جعل قَدْرٍ لكل شيء، فوجود الموازنة يهدف لرسم ما سيكون عليه التنفيذ: **كُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** (الرعد: ٨). وقال: **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** (الطلاق: ٣). وهذا ليس بسبب نقص العرض أو الموارد، فالله العزيز؛ خالقٌ يخلق من العدم وليس لديه مشكلة اقتصادية كحال الإنسان المخلوق: **كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (آل عمران: ٤٧).

والأمثلة بأن (لكل شيء مقداراً) مقدور له، عديدة في كتاب الله، منها:

١. أن حركة الشمس التي لها وظائف عديدة منها الضياء من ذاتها، وحركة القمر الذي له وظائف عديدة منها إنارة الليالي في الكون، قد جعل الله لكل منهما منازل مقدرة بإحكام ليس فيها خلل إطلاقاً، حيث يُستفاد من حركتهما:

– تعلّم السنين ومعرفة قدرها، ويُعدُّ الزمن مخلوقًا من مخلوقات الدنيا وهو لازم لها، ومع موت الإنسان يتوقف زمنه، ولن يكون بحاجة له.

– تعلّم الحساب الذي لا يُستغنى عنه لأي علم من علوم الإنسان، وهو أساس العلوم.

– إن هذه الآيات مُفصلةٌ لقوم يعلمون، وهي بمثابة بعض أدوات العلم المُكلّف به الإنسان: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (يونس: ٥). وإن منافع هذين الكوكبين عديدة وكثيرة، منها ما عَلِمها الإنسان، ومنها ما زال يجهله.

٢. سلاسل القيمة الخاصة بدورة الماء في الكون، فالماء هو أساس خلق كل شيء حيّ: **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** (الأنبياء: ٣٠)، فعندما ينزل الماء من السماء يقع على الجبال وسفوحها وعلى الأراضي وفي البحار، ويستقر في وديان الأرض وأخاديدها لانخفاضها، وكأنها مستودعها، فتأخذ منها حسب سعتها، وما زاد عنها يكون غير ذي نفع، سماه الله تعالى بالزَبد، وشبهه بصناعة الحلي والمتاع والنحاس والحديد وغيرها، فبعد صهر تلك الأشياء بالنار يبقى النافع منها، وما زاد يكون زَبدٌ لا نفع فيه، بل يجب إزالته. وخلاصة التشبيهين أن ما ينفع الناس باقٍ في الأرض، وأن الضار زائل، وهذه خلاصة سنة تدافع الحق والباطل على مرّ الحياة الدنيا، فبها تُحفظ الأرض من أي فساد أو تلوث مُسيء، وبها يُحفظ ما عليها من مخلوقات، وذلك ببقاء الأصلح والأفضل. ولعل الفتن والبلاءات التي تصيب البشر هي أشبه بالنار التي صهرت المعادن فميّزت النافع من الضارّ، وكذلك يكون الناس منهم الصالح ومنهم دون ذلك. قال المولى عزّ جلّ: **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** (الرعد: ١٧).

وتستمر سلسلة القيمة الخاصة بدورة الماء في الكون؛ بأنه تعالى يُسكن الماء في باطن الأرض وفوقها لتكون مخازن بقَدْرٍ يُقدِّره بذاته العلية، وهو قادر أيضًا على أن يُذهبه وهذا لا يكون لغيره: **وَأَنزَلْنَا**

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (المؤمنون: ١٨). ومخازن الماء كلها عند المالك المقتدر، وكذلك مخازن غير الماء، يَنزل منها حسب ما يشاء الله بقدرٍ يعلمه علمًا يقينيًا، وهذا إشارة لشدة صنعه واتقانه وتقديره: وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر: ٢١).

٣. وبأخذ قصة إغراق قوم نوح عليه السلام بعين الاعتبار، نجد إعجازًا يصعب فهمه على البشر، حيث أمر الله السماء بفتح أبوابها بماء منهمر، وفَجَّر الأرض ينابيعًا، فالتقى ماء السماء وماء الينابيع بقدرٍ قدَّره الله تعالى تقديرًا مُحكمًا، فغرق أهل الأرض ممن حلّت عليهم عقوبة الله تعالى، ونجا من ركب مع نوح عليه السلام بالسفينة: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (القمر: ١١-١٢)، ولشدة الماء، فقد صوّرته الآية الكريمة بأنه: كالجبال، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ (هود: ٤٢)، ومن يركب البحار في شدتها يعلم ذلك ويُعايشه.

إن مراحل التخطيط الكوني التي نتصورها مرت بالمراحل التالية:

١. الخَلق: خلق الله تعالى كل شيء: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (الزمر: ٦٢).

٢. التسخير: سخر الله للإنسان كل ما تم خلقه: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (لقمان: ٢٠).

٣. التمكين: مكّن الله الإنسان بما سخّره له رغم ضعف الإنسان أمام غيره من تلك المخلوقات المسخرة لأمره وطوّعها له: وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (الأعراف: ١٠).

٤. التكليف: تم تكليف الإنسان بحمل الأمانة في هذه الدنيا، وأُعطي حرية الاختيار في الطاعة والمعصية كما يشاء ما دام في الحياة الدنيا: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ

بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٥٦)، وشهد الناس جميعهم بربوبية الله تعالى، فقال المولى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (الأعراف: ١٧٢).

ثم أخذ من الإنسان ممثلاً بالأنبياء التي تمثل أقوامها ميثاقًا غليظًا: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (آل عمران: ٨١)، وأقرّ الأنبياء عليهم صلوات الله بذلك، بوصفهم يمثلون أممهم، فقال لهم الله: ليشهدْ بعضكم على بعض، واشهدوا على أممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم.

٥. الحساب: بعد تمكين الإنسان وتسخير كل شيء له، ثم تكليفه ومنحه حرية الاختيار، سيخضع للحساب والمساءلة، وهذا ما يُسمى بمحاسبة المسؤولية، بعد ما تم تفويضه ومنحه السلطات الكاملة: وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (لقمان: ٣٢).

لقد بسط الله الرزق بأنواعه لعباده، بعد أن قدّر حاجاتهم تقديراً مُحكماً: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (العنكبوت: ٦٢). ورغم أن الله تعالى قادر على إيجاد أي شيء؛ بأمر (كُن فَيَكُونُ)، ولا يُعجزه شيء، أخبرنا سبحانه وتعالى عن خلقه للأرض وتثبيتها بالجبال من فوقها، وجعل فيها البَركة لتحقيق النفع للناس، فتُنبت كما أراد لها، وتتكاثر الدواب عليها كما أراد لها: وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (فصلت: ١٠).

والسؤال الذي يتبادر للذهن؛ إذا كان الله يخلق من العدم، ولا يُعجزه شيء، فلماذا استغرق تقدير أقوات السائلين المحتاجين من المخلوقات أربعة أيام، بتقدير كان بالتسوية؛ أي حسب الحاجات التي يحتاجها كل سائل؟

لابد أن ذلك هو لتعليم البشر حكمة التخطيط والتقدير ليأتي التنفيذ بقدر صائب. وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى هو خالق العرض والطلب، فالعرض منشؤه الموارد المادية التي خلقها وسخرها للإنسان، والطلب منشؤه حاجات البشر وحاجات من دونهم كالدواب مثلاً التي هي أيضًا تلبي حاجات البشر. والاقتصاد لا يقوم إلا بموارد مادية وأخرى بشرية، وبالتقاء العرض والطلب تتحدد القيم وتتشكل الأسعار، ويقوم التبادل بين الناس، وتدور عجلة الاقتصاد، وبه تقوم الأسواق وبه تقوم حياة الناس وأعمالهم: **أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** (النساء: ٥).

ذكر ابن كثير في تفسيره: قال مجاهد وعكرمة في قوله: (**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**) أي جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، وقال ابن زيد: (**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ**) أي على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدَّر له، ما هو محتاج إليه.

وذكر القرطبي في تفسيره: قال عكرمة والضحاك معنى (**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**)، أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد. وهذا معنى قوله تعالى: **لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا** (الزخرف: ٣٢). كما قدّر الله تعالى مواقع المدن والبلدات والقرى التي يسكنها البشر، وقدّر السير والمسير بينها، قال تعالى: **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ** (سبإ: ١٨). وجاء في التفسير الميسر: جعلنا بين أهل سبأ وهم باليمن والقرى التي باركنا فيها وهي الشام مُدنًا متصلة يُرى بعضها من بعض، وجعلنا السير فيها سيرًا مُقدَّرًا من منزل إلى منزل لا مشقة فيه، وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى في أيٍّ وقت شئتم من ليل أو نهار، آمنين لا تخافون عدوًا، ولا جوعًا ولا عطشًا.

وجعل الأرض مستوية ليتخذ البشر فيها طرقًا يسيرون فيها: لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (نوح: ٦)، وجعل في الجبال فتحات يتخذونها طرقًا يسيرون فيها، وتُسهل تنقلاتهم بين المدن والقرى لتحقيق مصالحهم: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (الأنبياء: ٣١).

إذًا كل شيء في هذا الكون مُخطط له بدقة، ولا شيء عشوائي البتة، وجميع ما فيه يُحقق مراد الله تعالى في توحيده، سواء أكان مُخيّرًا كالإنسان، أم غير مُخيّر من غيره من باقي المخلوقات، فمن سار على النهج الصحيح ممن تُرك له الخيار؛ جازاه الله بجنة عرضها كعرض السموات والأرض، ومن انحرف منهم؛ جازاه الله بنار يخلد فيها مُهانًا، وقد أنذر الله الناس وأقام عليهم الحجج قبل تلك الخاتمة الأبدية، بعد أن علّمهم وربّاهم، وليس للمخالف حجة يحتج بها سوى تقصيره.